بسم الله الرحمن الرحيم

مصادرنا عن تاريخ العراق القديم وتقويمها

أ. د. عامر سليمان (*)

قد تبدو دراسة تاريخ العراق القديم اكثر يسراً للباحث العربي من دراسة تاريخ العراق في العصور الإسلامية والحديثة نظراً لكثرة الآثار المكتشفة وغزارة المعلومات التي ضمتها آلاف النصوص المسمارية التي تمت ترجمتها حتى الآن، واستمرار تدفق الكشوفات الأثرية وما تحمله من مفاجآت ومعلومات جديدة. فضلاً عن ذلك فإنّ هناك كمّاً هائلاً من البحوث والدراسات الأجنبية الصادرة بمختلف اللغات عن تاريخ العراق القديم وتاريخ حضارته، والتي ما تزال تصدر، منذ القرن التاسع عشر وحتّى الآن، والتي يبدو انها مهّدت الطريق للبحث والدراسة وأرست قواعد البحث الأساسية. وقد يكون الأمر كذلك فعلاً وتكون مهمة الباحث العربي سهلة ويسيرة إذا اخذ بظاهر ما تعكسه الآثار المادية المكتشفة واعتمد كل ما نقلته النصوص المسمارية من معلومات على انها حقائق ثابتة وسار على المنهجية التي وضعها الباحثون الغربيون في أثناء القرنين الماضيين. إلا أن صعوبة البحث ومشكلاته الكثيرة تظهر عندما يريد الباحث أن يدقق فيما تعكسه الآثار المكتشفة وما تعبّر عنه من حقائق وما يكمن وراءها من أسباب دفعت إلى صنعها، وينقد النصوص المسمارية ويحللها في ضوء ما هو متوافر من معلومات مستقاة من مصادر أخرى، ويخرج عن الطوق الذي فرضته المنهجية الغربية في

(*) عضو المجمع العلمي - أستاذ في قسم الآثار - كلية الآداب / جامعة الموصل

دراسة تاريخنا القديم، وقد ينجح أحيانا في الوصول إلى صورة اقرب ما تكون للحقيقة ويفشل أحيانا كثيرة أخرى وما عليه إلا أن يحاول مرة تلو الأخرى سعياً وراء الحقيقة التاريخية.

ان ما صدر حتى الآن من دراسات عربية وبحوث عن تاريخ العراق القديم كمٌّ لا يستهان به وذو درجة كبيرة من الأهمية، ولكل دراسة أو بحث أهميته الخاصة في الجانب الذي يعالجه لما ضمه من معلومات غزيرة وتفاصيل دقيقة وأسلوب علمي رصين في البحث، ولا سيما تلك البحوث والدراسات التي صدرت منذ أواسط القرن العشرين وحتى الآن[1]. ولقد ساهمت تلك البحوث والدراسات في التعريف بحضارة العراق الأصيلة بين أوساط المثقفين العرب ونشرت الوعي الاثاري بينهم وبعثت فيهم روح الفخر والاعتزاز بما حققه العراقيون القدماء من إنجازات حضارية رائدة أغنت الحضارة البشرية، وحفزت على الاقتداء بهم في المسيرة الحضارية الحديثة. ومع كل هذه الأهمية إلا انها تبقى بحوثا ودراسات بدأت من حيث وصل الغربيون واعتمدت على ما تمخضت عنه دراساتهم التاريخية والاثارية وأخذت بظاهر ما تعكسه الآثار المكتشفة وما تضمنته النصوص المسمارية التي تمت ترجمتها من قبل الباحثين الأجانب.

إننا بحاجة، كما نرى، إلى وقفة تأمل نتفحص خلالها أهم مصادر معلوماتنا عن تاريخ العراق القديم، وهي كل ما أسفرت عنه نتائج التنقيبات

(1) كانت بحوث الأستاذ طه باقر من أولى تلك الدراسات العربية الرصينة، انظر مثلا كتابه الموسوم، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، بغداد، 1955 ومقالاته العلمية الكثيرة ومقالات الأستاذ فؤاد سفر وفرج بصمه جي في مجلة سومر التي بدأ صدورها في العام 1945.

الأثرية من آثار مادية وكتابات مسمارية، ونعمل على نقدها وتجريحها وتحليلها واستنتاج ما يمكن استنتاجه منها بعيداً عن التأثيرات الداخلية والخارجية التي تعرضت إليها قديماً أو حديثا وبيان السبل التي يمكن اتباعها بهدف تحقيق ذلك وصولاً إلى صورة اقرب ما تكون لواقع ما كانت عليه حياة العراقيين القدماء(2).

أما مصادرنا في المدة السابقة للقرن التاسع عشر، فهي مقصورة على عدد من الروايات والقصص التي ذكرتها أسفار العهد القديم، وأشار إلى بعضها الكتاب الكلاسيكيون، وردّدها من جاء بعدهم من كتاب، إلى جانب ما ذكره الرحالة والسواح الذين زاروا بلدان الشرق القديم في العصور القديمة والوسطى وما نقلوه عن مشاهداتهم الشخصية أو سمعوه من روايات وقصص شعبية. وقد انتقلت العديد من تلك القصص والروايات إلى كتب المؤرخين العرب المسلمين الذين اعتادوا أن يقدموا لكتاباتهم التاريخية بموجز عن تاريخ الإنسان منذ أنْ خُلِقَ آدم عليه السلام وحتى بداية التاريخ الإسلامي. وكما هو واضح من طبيعة هذه المصادر فإن ما قدّمته من معلومات عن تاريخ العراق القديم لا يتعدى كونه قصصاً خيالية وروايات شعبية تناقلتها الأجيال وأبعدتها عن الحقائق التاريخية، إلى جانب ما ذكره الأحبار اليهود عن علاقاتهم العدائية مع بلاد بابل وآشور وضمّنوها حقدهم وكراهيتهم للآشوريين والبابليين الذين قضوا على كياناتهم السياسية

(2) حول أسلوب تقييم المصادر ونقدها وتجريحها ينظر : طه باقر، طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار، بغداد 1980، ص 77 وما بعدها.

التي كانت تعمل دوماً على خلق الفتن والاضطرابات في بلاد الشام وتحرض الممالك السورية المتعدّدة ضدهم.

وبحلول القرن التاسع عشر تغيرّت الصورة تماماً عن تاريخ الشرق القديم، إذ بدا المغامرون الأوربيون، وفي مقدمتهم المبعوثون الدبلوماسيون ووكلاء شركات النفط العاملة في العراق، بالتحري عن آثار الماضي والبحث عن المدن العظيمة التي ذكرها الكتاب المقدس مثل نينوى وبابل وكالح وغيرها، يشجعهم في ذلك مؤسسات علمية ولاهوتية إلى جانب الجهات السياسية المعّينة في العراق وكان للتحريات الأثرية[3] في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، على الرغم من عدم علميتها، نتائج باهرة أذهلت العالم الغربي وكشفت عن وجه حضارة العراق القديمة التي عدّها الغربيون أنفسهم إحدى أهم الحضارات البشرية الأصيلة وقدّمت لهم آثارا متحفية ما تزال تفخر بها متاحفهم الرئيسة، واستمرت أعمال البعثات الأجنبية للتنقيب عن الآثار في العراق طوال القرن العشرين، مع توقف في أثناء الحروب والأزمات، إلا أنها اعتمدت أساليب علمية دقيقة وكشفت عن المزيد من الآثار وعملت في العديد من المدن والمواقع الجديدة، ولسنا هنا بصدد متابعة أعمال التنقيبات في العراق وتطويرها، إذ تناول ذلك عدد من البحوث بشكل تفصيلي، بل إننا سنحاول إلقاء نظرة على ما يمكن استنتاجه من نتائج تلك التنقيبات[4].

(3) حول تاريخ التنقيبات الأثرية في العراق والمراحل التي مرت بها ينظر: إبراهيم، جابر خليل، الأنشطة الاثارية _ التنقيب عن الآثار، في موسوعة الموصل الحضارية، موصل، 1991، ص 490- 495 .

(4) باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، بغداد، ط3، 1973، ص 126- 132.

لقد أسفرت التنقيبات الأثرية عن آثار كثيرة ومتنوعة عكست وجه حضارة لم تكن معروفة قبل ذلك، ويمكن تصنيف هذه الآثار إلى صنفين رئيسين من حيث المدة الزمنية التي تعود لها، يخص الصنف الأول منها عصور ما قبل التاريخ في حين يعود الصنف الثاني إلى العصور التاريخية، وقد تعارف الباحثون على عدّ استخدام الكتابة وسيلة لتدوين الأخبار والأحداث وتثبيت أزمنتها، حدّاً فاصلاً يميز العصور التاريخية عن العصور السابقة لها، وحيث إن مدن جنوبي العراق كانت قد شهدت ابتكار أول نظام كتابي معروف، لذا فإن العصور التاريخية تبدأ فيها قبل غيرها من أرجاء العالم القديم، ويمكن تحديد ذلك مع بداية الألف الثالث قبل الميلاد.

ضمت عصور ما قبل التاريخ الجزء الأعظم من حياة الإنسان، وفي العراق وجدت آثار تعود إلى العصور الحجرية القديمة والوسيطة والحديثة في الجهات الشمالية الشرقية والغربية من العراق، وكانت آثار النصف الثاني من العصر الحجري المعدني الذي يمتد من أواسط الألف السادس قبل الميلاد وحتى أواسط الألف الرابع، هي اقدم الآثار المكتشفة في القسم الجنوبي من العراق، إذ لم تكن المنطقة قبل هذا التاريخ صالحة للاستيطان. وتنتهي عصور ما قبل التاريخ في العراق بالعصر الذي اصطلح على تسميته بالعصر الشبيه بالكتابي، نظرا لأن استخدام الكتابة فيه لم يكن قد شاع وانتشر.

كان اهتمام المنقبين الروّاد من الهواة والمغامرين والباحثين عن الشهرة والمال، كما المحنا، موجهاً في البدء للكشف عن الصنف الثاني من الآثار، وهي الآثار الفنية والمتحفية الضخمة، لذا تركزت أعمالهم في العواصم

والمدن الرئيسة، ولم يبدأ الاهتمام بالتنقيب في المواقع الصغيرة، ولا سيما مواقع عصور ما قبل التاريخ، إلا في مدة متأخرة نسبياً[5].

ومع أن آثار عصور ما قبل التاريخ هي آثار صماء لا تعبِّر إلا عن الجوانب المادية من حياة الإنسان وفائدتها محدودة بالنسبة للجوانب الروحية والفكرية والسياسية والاجتماعية، إلا أنها مصدرنا الوحيد عن تلك العصور، في غياب النصوص المدونة، ولا نتوقع أن تكشف لنا التنقيبات المقبلة في مواقع هذه العصور وطبقاتها إلا عن المزيد من هذه الآثار الصماء. ومع ذلك، فإن لهذه الآثار أهمية قصوى في فهم أسلوب حياة الإنسان، فهي مرآة صادقة التعبير تعكس جوانب معينة من تلك الحياة وميزتها وهي لا تختص بفئة محددة من فئات المجتمع بل تعود إلى الفئات الاجتماعية كلها دون تمييز. فمواطن الاستيطان وبيوت السكن وبقايا الأدوات الحجرية والأواني الفخارية والأختام الأسطوانية والأدوات الزراعية والمنزلية وغيرها كلها تعكس جانباً من الحياة الاقتصادية، بالدرجة الأساس والاجتماعية إلى حد ما، للجماعات البشرية التي عاشت في الكهوف والمغارات ومواطن الاستيطان المكشوفة وفي القرى والبلدات الزراعية، فهي تبين الحرف والصناعات اليدوية التي كانت شائعة، وتوضح أساليب العيش في البيوت البسيطة المشيدة بالطوب أو اللبن أو الحجر وطرائق الحصول على القوت، وفي الوقت نفسه تعكس جانباً من الحياة الاجتماعية والفنية. كما يستفاد من بقايا عظام الحيوانات ومن النباتات المتفحمة في معرفة ما كان مدجناً منها وذا فائدة للإنسان. وهكذا يمكن رسم صورة تقريبية، إلا انها صادقة، عن الخطوط العامة التي كان يعيش فيها الإنسان الاعتيادي في عصور ما قبل التاريخ، وكلما كشفت لنا التنقيبات

(5) باقر، طه، المصدر نفسه، ص 117 ـ 119.

عن المزيد من آثار عصر معين من تلك العصور كلما زادت تفاصيل الصورة التي رسمناها، إلا أنها تبقى صورة عامة جداً لا تحكي شيئاً مفصلاً عن حياة الإنسان اليومية وعلاقاته الاجتماعية ولغته التي تفاهم بها مع أخيه الإنسان ومعتقداته الدينية وأفكاره وقيمه ومثله الى غير ذلك من الجوانب غير المادية من حياته والتي يصعب استنباطها من الآثار الصماء. ومع ذلك، فإن هناك من الباحثين من يرسم صورة مفصّلة عن حياة الإنسان في عصور ما قبل التاريخ، وبخاصة عن معتقداته الدينية، معتمداً على نقش أو دمية أو آنية فخارية أو على ما كان يدفن مع الميت من تجهيزات والى غير ذلك من الآثار(6) والتي يمكن أن يستنتج منها صورة مغايرة تماماً للصورة التي وضعها باحث معين تبعاً لفكره ومعتقده ونظرته وتفسيره للآثار المكتشفة.

وتتميز آثار العصور التاريخية بأنها اكثر وفرة وتنوعا وأروع فناً وضخامة ويعكس معظمها المرحلة المتقدمة التي قطعها الإنسان في الصناعة والفن. فضلاً عن ذلك، فقد ضمت عشرات الألوف من الألواح الطينية والحجرية التي حملت إلينا كتابة مسمارية ذات مضامين مختلفة وكشفت عن الجوانب غير المادية من حياة الإنسان التي يفتقدها الباحث في دراسة عصور ما قبل التاريخ. إلا أن هذه الكثرة من الآثار والعدد الكبير من الكتابات المسمارية لا يعني بالضرورة أن الصورة التفصيلية لحياة الإنسان العراقي القديم قد اكتملت وتم اتفاق الباحثين على هيئتها النهائية بل ربما تكون كثرة الآثار وتنوعها ووفرة الكتابات واختلاف مضامينها وطبيعتها سبباً في تضليل الباحثين وإعطائهم انطباعاً قد يختلف كثيراً

(6) ينظر على سبيل المثال: الدباغ، تقي، الفكر الديني القديم، بغداد، 1992. حنون، نائل، عقائد ما بعد الموت، بغداد، 1986. رشيد، فوزي، الديانة في حضارة العراق، ج1، بغداد، 1985.

عن واقع ما كانت عليه الحياة العامة والخاصة التي عاشها الإنسان في العراق في عصوره التاريخية المختلفة.

من المعروف أن دوافع المنقبين الأوائل، من الهواة والمغامرين، كانت بالدرجة الأساس هي البحث عن الكنوز الأثرية بكل ما تعنيه كلمة كنوز من معانٍ، وقد كانت نتائج أعمالهم محققة لأهدافهم هذه إذ تم الكشف عن تماثيل ضخمة لثيران واسود مجنحة وتماثيل لملوك معروفين ومسلات تحمل مشاهد دينية وحربية منحوتة عليها نحتاً بارزاً إلى جانب ما تحمله من كتابات مسمارية وبقايا أبواب وأشرطة نحاسية كانت تزينها منقوشة بمشاهد مختلفة ألواح ضخمة من المنحوتات البارزة التي كانت تزين جدران قاعات القصور الآشورية إلى جانب القطع الفنية الكثيرة الأخرى كالحلي الذهبية والقطع العاجية والمعدنية والأختام الأسطوانية والأواني الفخارية وعشرات الألوف من الرقم الطينية في مقدمتها بقايا مكتبة اشور بان ابلي (اشور بانيبال) المشهورة. والى جانب الآثار التي تم نقلها إلى متاحف أوربا المشهورة وبخاصة في لندن وباريس وبرلين، فقد كشفت التنقيبات عن بقايا عشرات القصور والمعابد والزقورات والأسوار والبوابات والمدافن وعدد من بيوت السكن. وتعكس جميع هذه الآثار المنقولة منها وغير المنقولة عن وجه حضارة رائعة قطعت شوطاً بعيداً في مضمار التقدم في فن التخطيط والبناء والصناعة وتفصح عن رخاء اقتصادي واضح هيأ الظروف لتشييد المدن والقصور والمعابد الضخمة وتزيينها وزخرفتها. وكلما مرّت السنون واستمرت التنقيبات، زادت الآثار المكتشفة وتزايد الاهتمام بها وبالآثار الأقل أهمية من الناحيتين المادية والمتحفية وغدا المنقبون يهتمون برسم المخططات والرسوم وأخذ الصور وتحديد المعاثر والتقاط كل اثر مهماً كان

صغيراً أو تافهاً ورسمه وتثبيت مواصفاته لإعطاء صورة اكثر تفصيلاً عن العصر الذي يعود إليه ذلك الأثر.

إن ما يؤخذ على معظم الآثار المكتشفة، ولا سيما الآثار التي تم اكتشافها في القرن التاسع عشر، أنها آثار تخص فئة معينة من فئات المجتمع، تلك هي الفئة الحاكمة أو المتنفذة يتبعها المعبد وكهنته، إذ تركزت أعمال التنقيب في المدن الرئيسة وفي الأجزاء المهمة من تلك المدن، وهي الأجزاء التي تضم عادة أبنية القصور والمعابد، وكانت عادة في منطقة مرتفعة ومعزولة عن بقية أبنية المدينة ومساكن الأفراد الاعتياديين ويفصلها عنهم أحيانا أسوار داخلية ضمن سور المدينة الرئيس.

إن فائدة هذه الآثار بالنسبة للباحث ذات شقين، فهي تعبِّر أولا تعبيراً صادقاً عما وصل إليه التقدم الحضاري في المضمار الفني والصناعي وفي الوقت نفسه فإنها تعكس جانباً عن حياة الفئة الحاكمة أو المتنفذة التي تعود إليها تلك الآثار ولكنها لا تفصح عن حياة عامة الناس من الأفراد الاعتياديين إلا بحدود ضيقة جداً. ان الصورة التي تقدمها هذه الآثار، حتى بالنسبة إلى الفئة الحاكمة، فيها كثير من المبالغة والابتعاد عن واقع ما كانت عليه الأحوال، إذ كان الهدف من معظمها إظهار قوة الملك وسعة نفوذه وسلطانه ومدى قدسيته وأسلوب معاملته الأعداء والمتمردين وقسوته في القضاء عليهم، عقوبة لهم وردعاً لغيرهم[7]، وكل ما كانت السلطة ترغب في إيصاله إلى عامة الناس وخاصتهم فهي وسيلة من وسائل الإعلام القليلة التي كانت متيسرة آنذاك. وقد تضلل الآثار المكتشفة،

(7) ساكز، هاري، عظمة بابل، لندن، 1962، ترجمة عامر سليمان، ص278 وما بعدها . وكذلك: سليمان، عامر، العراق في التاريخ القديم، موصل، 1992، ص 225 ـ 227.

ولا سيما المشاهد المنحوتة، الباحث وتدفع به إلى استنتاجات غير دقيقة ولنا في استنتاجات الباحثين الغربيين عن الآشوريين وسياستهم الخارجية خير مثال على ذلك، إذ وُصِفَ الآشوريون، اعتماداً على ظاهر ما تعكسه وسائلهم الإعلامية، بالقسوة الشديدة والتلذّذ بتعذيب الأعداء وقتلهم إياهم والى غير ذلك من الصفات البغيضة التي لا تعبِّر عن حقيقة الآشوريين كما تثبتها الدراسات العلمية الأخرى.

ومع أن المرحلة الثانية من مراحل التنقيب عن الآثار، وهي مرحلة القرن العشرين، بدأت تهتم بالآثار الأقل أهمية من الناحية المتحفية وتركز على تخطيط المدن وأبنيتها وتعمل في عدد من بيوت السكن، إلا أن ما يلاحظ في السنوات الأخيرة عودة إلى ما كانت عليه الحال في المرحلة الأولى من التنقيبات إذ زاد الاهتمام بالآثار ذات القيمة الفنية والمتحفية وبالأبنية الضخمة وملحقاتها على حساب البقايا الأخرى الأقل أهمية اما نتيجة الخوف من الغمر من جراء تنفيذ مشاريع الري الكبرى أو للحصول على مكافآت مادية مجزية وفق القوانين الحديثة الخاصة بالكشف عن الآثار والتي تعد بحق عودة إلى ما قبل القرن التاسع عشر وضربة قصمت ظهر علمي الآثار والتنقيب.

وتنفرد الكتابات المسمارية بأهميتها القصوى في معرفة تاريخ العراق القديم إذ لولاها لما أمكن النفوذ إلى حضارته من جوانبها غير المادية، الروحية والفكرية وغيرها ولما أمكن معرفة المراحل التي قطعها العراقيون القدماء في العلوم والآداب ومع اعتقدوا به من معتقدات وما اتبعوه من نظم اجتماعية واقتصادية ومالية وإدارية وغير ذلك من المعارف والظواهر الحضارية التي لا تترك عادة آثار مادية. وفضلاً عن ذلك، فإن الكتابات المسمارية حفظت لنا لغات العراق القديم

بلهجاتها المختلفة، ولا سيما أن العراقيين القدماء آثروا استخدام ألواح الطين والحجارة بالدرجة الرئيسة للكتابة عليها، وهي مواد لا تبلى أو تتأثر كثيراً بالعوامل الطبيعية خلافاً للمواد العضوية التي استخدمتها الأقوام الأخرى مثل الجلود وورق البردي وغيرهما. وقد حفظت لنا التلول والمواقع الأثرية، على الرغم من رطوبة تربتها وتعرض بعضها للحرائق أحياناً ولسيول المياه أحياناً أخرى، آلاف الرقم الطينية والألواح الحجرية التي تحمل كتابات مسمارية ذات مضامين مختلفة.

إن وفرة الكتابات المسمارية وكثرة نصوصها تصل أحياناً إلى درجة لا يمكن للباحث ان يلم بها جميعاً، إذا ما أراد أن يكتب عن جانب معين من جوانب الحضارة العراقية القديمة، ولا سيما أن الغالبية العظمى من الكتابات قد نقلت ألفاظها إلى القارئ المعاصر بالخط اللاتيني برموزه وإشاراته الكثيرة المستحدثة بدلاً من الخط المسماري، وترجمت مضامينها إلى مختلف اللغات الأجنبية، ولم يترجم منها إلى اللغة العربية إلا عدد محدود جداً. إن هذه الحقائق تخلق عقبات أمام الباحث العربي إذا ما أراد الكتابة عن حضارة العراق القديمة. فضلاً عن ذلك فان غالبية المتخصصين الأجانب بالدراسات اللغوية والمسمارية هم من اليهود أو ممن يؤمنون بأهداف اليهود وبصحة وقدسية جميع ما ورد في كتابهم المقدس، لذا كان من أهدافهم الكامنة وراء اهتمامهم بالكتابات المسمارية، وفي مقدمتها الكتابات الدينية التي تشير إلى الأحداث والأخبار التي ورد ذكرها في عدد من أسفار العهد القديم، أن يؤكدوا أصالة تلك الأسفار وصحتها ويفسروا النصوص المسمارية بما ينسجم وتحقيق تلك الأهداف.

مـن جانـب آخـر، فـإن غالبيـة الكتابـات المسـمارية المكتشـفة، باسـتثناء الوثائق القانونية والرسائل الشخصية، ذات علاقة بالقصر أو المعبد وبنشاطاتهما أو صـادرة بتوجيـه مـن أحـدهما، وينطبـق ذلـك علـى القـوانين والمراسـيم والإصـلاحات والرسـائل والعقـود ذات العلاقـة وعلـى جميـع القصـص والملاحـم والأسـاطير والتراتيـل والصـلوات ممـا لـه علاقـة بالمعبـد وكهنتـه وكيفيـة إجـراء الطقـوس الدينيـة فيـه. كمـا يشـمل النصـوص الأدبيـة والمـآثر الأخـرى التـي دونهـا كتبـه تـابعون للقصـر أو المعبـد وهـذا يفسـر غيـاب أسـماء الكتبـة أو المـؤلفين في معظم النصوص المكتشفة.

إن هذا يجعل من الكتابات التي وصلت إلينا وثـائق رسـمية تمثـل وجهـة نظـر السلطة الحاكمة وكهنتها وكلاهما يمثل خطأ واحداً غير متقاطع، أما وجهة نظر الأفراد الاعتياديين التي قد تختلف عن وجهة نظر السلطة والكهنة فلم تجد طريقها للتدوين، إذ لم يكن هناك ـ كما يبدو ـ من يكتب في التاريخ والجغرافية والفلسفة والمنطق وفي اللغة والأدب مما يعبر عن الأفكار الشخصية والآراء الخاصة التي قد تختلف عن أفكار الفئات المتنفذة وآرائها، على غرار ما دونه عدد من الكتاب الكلاسيكيين وآخر من المؤرخين العرب المسلمين، وقد يفسر ذلك بأنه عزوف عن الكتابة في مثل هذه المواضيع التي قد لا تتفق آراء الكتبة فيها والتيار العام، وقد يفسـر سـبب العـزوف بأنـه نـاتج عـن طبيعـة المـواد التـي اسـتخدمت للتـدوين عليها، وهي الطين والحجر غالباً وصعوبة كتابة كتابات مطولة والاقتصار على مـا هـو ضـروري وعملـي فقط.كمـا أن جميـع الـدلائل تشـير إلـى أن ارض الرافدين شـهدت منـذ اقـدم عصـورها دعـوات توحيديـة جـاء بهـا عـدد مـن الأنبيـاء والرسل في مقدمتهم نوح وإبراهيم ويونس عليهم السلام وقد نجد صدى دعواتهم

في عدد من القصص والملاحم الدينية مثل قصة الخليفة وملحمة جلجامش، إلا أننا لم نعثر بعد على ما يشير إلى تلك الدعوات أو إلى تعاليمها في النصوص المدونة، وهو أمر طبيعي طالما كانت تلك الدعوات في اتجاه معاكس للتيارات الدينية التي كانت عليها الفئات المتنفذة.

نخلص من هذا إلى أنه كانت هناك صعوبات كثيرة تعترض الباحث العربي إنْ هو أراد أن يكتب عن الحياة في العراق القديم من أوجهها المختلفة كتابة دقيقة صادقة التعبير وان من الواجب تذليل تلك الصعوبات وتيسير مهمة الباحث ووضع أسس متينة لمدرسة عراقية خاصة بكتابة تاريخ العراق القديم على غرار ما قدمناه في بحث سابق عن المدرسة العراقية في قراءة النصوص المسمارية وترجمتها وتحقيقها، ومن أجل تحقيق ذلك نرى اَنْ يؤخذ بالحسبان ما يأتي:

- العمل على إعادة النظر في القانون الخاص بمنح المنقبين المكافآت المادية على نتائج تنقيباتهم بما يضمن تحقيق الهدف العلمي الذي تتوخاه تلك القوانين. والتأكيد على ضرورة الاهتمام بكل الآثار والبقايا التي قد يكشف عنها بغض النظر عن قيمتها المادية أو الفنية واعتماد احدث الوسائل العلمية في التنقيب.
- التركيز في دراساتنا، ولا سيما الدراسات العليا للطلبة، على ترجمة الوثائق القانونية والرسائل الشخصية وأي نصوص أخرى قد تعكس واقع حياة الأفراد الاعتياديين.

- العمل على ترجمة المهم من البحوث والدراسات الأجنبية لتاريخ العراق القديم وتاريخ لغاته وحضارته مع التعليق عليها بما ينسجم ونظرتنا إلى هذا التاريخ ويتفق وتفسيرنا للآثار المكتشفة.
- التأكيد على الطلبة والباحثين الجدد أن ليس كل ما ورد في الكتب والدراسات الأجنبية هو من الحقائق المسلم بها ولا يمكن الطعن بها أو الخروج عن منهجيتها وان ذلك ينسحب إلى النصوص المسمارية نفسها التي تمثل، كما أوضحنا، وجهة نظر فئة معينة من فئات المجتمع دون غيرها.

ان للباحث العربي - وبخاصة العراقي – امتيازاً على جميع الباحثين الأجانب لكونه عراقياً مسلماً، فكونه عراقياً يعني أنه يعرف وبشكل تفصيلي طبيعة الإنسان العراقي القديم ولغته وأسلوب تفكيره وتفاصيل حياته الاجتماعية والاقتصادية وردود فعله للتحديات التي قد تواجهه والى غير ذلك مما كان يحيط بالإنسان في تاريخه القديم وهو الإنسان نفسه الذي يعيش الآن وينتمي إلى المجموعة البشرية نفسها ويتكلم بلغة شقيقة إلى اللغة القديمة ويعيش في ظل الظروف البيئية والجغرافية نفسها بل أن هناك الوافر من العادات والتقاليد والأعراف التي نؤمن بصحتها ونعمل بها ما تزال تعيش بيننا وهي ترجع بأصولها إلى العصور العراقية القديمة، لذا كانت قدرتنا على فهم واقع الحياة في العراق القديم افضل بكثير من قدرة أي باحث أجنبي.

كما أن بإمكان الباحث المسلم، عراقياً كان أم غير عراقي، أن يسترشد بما ورد في القرآن الكريم من إشارات إلى أحداث وقصص معينة، منها ما يخص خلق الكون والإنسان ومنها ماله علاقة بعدد من الأنبياء والرسل ومنها ذو علاقة بالقيم

والمثل العليا والأحكام والمبادئ التي جاءت بها الرسالات السماوية[8] والتي لابد من أنها أثرت بشكل من الأشكال فيما كان سائداً في العراق القديم، كي تساعدنا على فهم ما غمض علينا فهمه وتفسيره في النصوص المسمارية بعد أن زيد عليها وحذف منها بما ينسجم والمعتقدات السائدة وقت كتابة النصوص. كما أن هناك من القصص والأخبار والآيات القرآنية الكريمة ما يحفز الباحث، المؤمن بدقة ما ورد في القرآن الكريم، إلى البحث والتدقيق في الآثار الباقية والنصوص المدونة متلمّساً صدى تلك القصص والأخبار وما تركته من تأثيرات قد تظهر بلباس من الشرك بعيدة عن أصولها الحقيقة.

(8) ينظر على سبيل المثال: سليمان، عامر، من القران الكريم إلى النصوص المسمارية، مجلة المجمع العلمي، 1/45، ص 36-60 وكذلك المؤلف نفسه / رأي في نشأة المعتقدات الدينية، آداب الرافدين، موصل، 34، 2001، ص 1-15.

Abstract

A Revaluation of our Knowledge on the History of Ancient Iraq

Prof. Amer Sulaiman (*)

Our knowledge on the history of ancient Iraq was based, untill the beginning of the 19th centurey A.D., mainly on the Old Testament and Greek historians. The excavations carried out by various expeditions during the 19th and the 20th centuries in Iraq, have unearthed huge number of ancient sites and revealed thousands of buildings and archaeological finds, most important of which was cuneiform writings written on clay tablets and stones. These discoveries provided us with a detailed information on varios aspects of the ancient history of Iraq. Yet, they represent mainly the official points of view and neglect the ordinaryman's, that is the common, point of view. Moreover, all cuneiform texts were translated by western scholares, most of whom carried a prejudiced attitude towards the Assyrians and Babylonians. The writer points out these facts and warns students and young researchers of being mislead by such prejudiced attitudes and gives a number of suggestions to be in mind when writing the history of ancient Iraq.

(*) Member of the Academi of Sciences, Baghdad, and professor of an cient history of Iraq, College of Arts, University of Mosul.